البيوتيقا وتحدياتها المعاصرة في ظل مجتمع المعرفة

Bioethics and its contemporary challenges in light of the knowledge society.

1. معاشو نصرالدين.Maachou Nasreddine جامعة الجزائر

-2- أبو القاسم سعد الله. nasreddine.maachou@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 19 /ماي/2021 تاريخ القبول: 12/جويلية/2021

ملخص:

يكتسي العالم اليوم تطورا هائلا في مجال الطب والبيولوجيا، وهذا ما أدى إلى ظهور أزمات خطيرة تهدد كيان الإنسان ومستقبله، وحتى هويته وكرامته، ممّا تطلب ظهور مبحث فلسفي جديد يحاول التوفيق بينه وبين الأخلاقيات، وسمي بالبيوتيقا، أي أخلاقيات الطب والبيولوجيا، والتي بدورها حاولت التوفيق بين الطب والأخلاق، أو بصيغة أخرى إقامة علاقة حوار وتآزر بين مجال الطب والبيولوجيا والقيم الأخلاقية في ظل الكرامة الإنسانية.

إن الثورة البيولوجية وما نتج عنها من مشاكل أخلاقية جديدة، وما صاحب ذلك من ازدهار في التكنولوجيا الحيوية، صاحبه نكوص في التفكير الفلسفي ومنه الأخلاقي، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا، بحيث أنه سرعان ما استرجعت الفلسفة مكانتها، محاولة بذلك اقتحام هذا الميدان العلمي، من أجل التوفيق بينهما واضطلاع الأطباء بالمسؤوليات والواجبات الجديدة عليهم تجاه مرضاهم.

كلمات مفتاحية: بيوتيقا، مجتمع، معرفة، طب، أخلاق.

Abstract:

The world today is witnessing a tremendous development in the field of medicine and biology, and this is what has led to the emergence of serious crises that threaten the existence of man and his future, which required the emergence of a new philosophical study, called Biotics, which in turn tried to create a relationship of dialogue and synergy between the field of medicine, biology and ethical values in light of human dignity.

The biological revolution, and the accompanying boom in biotechnology, was accompanied by a regression in philosophical and ethical thinking, but this matter did not last long, so that philosophy quickly regained its position, trying to break into this scientific field, in order to reconcile them and carry out the responsibilities of doctors And the new duties they have towards their patients.

Keywords: *Bioethics; Society; Knowledge; Medicine; Ethics.*

مقدمــة:

لم تكن الفلسفة في يوم من الأيام مبحثا مجردا عن واقع الإنسان وظروفه، أو فكرا مثاليا متعاليا عن ما يعيشه الفرد ومجتمعه، وإن كانت كذلك فهي دائما تسعى إلى معالجة ما يعترض البشر من مشاكل مختلفة في حياتهم اليومية، ويتضح لنا هذا جليا حين أرادت اقتحام مجال الطب والبيولوجيا، وصبغه بصبغة أخلاقية، بغية تحدي المشاكل الإنسانية التي تعانيها جراء التطورات التكنولوجية والحيوية، فأحدثت بما يدعى بالبيوتيقا، كما انه لا ننسى أن الفلسفة ومنذ بزوغها لم تتوان لحظة في معالجة قضايا المعرفة، وذلك من خلال طرح أسئلة حول المعرفة الإنسانية، إمكانها، مصادرها، طبيعتها، حدودها، قيمتها، وسائلها، أنواعها...الخ، وانبثق بما يعرف بمجتمع المعرفة، والذي بدوره يعتبر واحد من بين المواضيع التي ودون أدنى شك يندرج ضمن ما تعالجه الفلسفة.

وعليه، ضمن مقالنا هذا، سنسعى إلى الربط بين البيوتيقا ومجتمع المعرفة، بحسب ما هو معاصر للوقت الراهن؛ كذلك محاولة التطرق إلى الفلسفة وكيف هي نظرتها إليهما، من خلال إلقاء الضوء حول مجتمع المعرفة وعلاقته بالتحديات المعاصرة التي تواجهها البيوتيقا، باعتبارهما موضوعين أساسيين في وقتنا الراهن، واللذين بدورهما يضعاننا أمام إشكاليات عديدة ومتعددة يمكننا أن نطرحها كالآتي: ما هي التحديات التي تعانيها البيوتيقا المعاصرة؟ وكيف ينظر المجتمع بمختلف مؤسساته إلى هذا الحقل المعرفي؟ وهل البيوتيقا اليوم قادرة على الإضافة التي تساهم في بناء ما يعرف بمجتمع المعرفة؟ أم أنه توجد عوائق تحول دون ذلك؟

وللإجابة على الإشكاليات المطروحة سابقا، وبناء على عنوان بحثنا المنطلق منه "البيوتيقا وتحدياتها المعاصرة في ظل مجتمع المعرفة" سنحاول بداية التطرق إلى الإطار المفاهيمي الذي تحتويه البيوتيقا ومجتمع المعرفة، لننتقل بعد ذلك إلى الولوج بهما للوظائف المعرفية في الفضاء الاجتماعي، مرورا إلى التحديات والعوائق التي تعترض البيوتيقا داخل الصراع الاجتماعي، ومستقبل هذه الأخيرة تحت ظلال مجتمع المعرفة.

1- قراءة في المفاهيم:

1-1- مجتمع المعرفة:

يعتبر مصطلح مجتمع المعرفة كغيره من المصطلحات الصعبة التحديد في المفهوم، بحيث لو تتبعناه وتصفحنا تعريفه، وغصنا في المعاجم والقواميس والبحوث والمقالات، فإننا لن نجد تعريفا محددا له، وذلك ناتج عن حداثة المصطلح وعصرنته، والغموض الذي يلفه، وكذلك ندرة الدراسات والأدبيات التي تناولته، ورغم ذلك فإنه لا يخفى على أحد بأن عصر مجتمع المعرفة هو عصر تطور المعرفة في حد ذاتها، فلقد برزت معطيات جديدة للمجتمعات الإنسانية لم تعرفها من قبل، مما حتّم عليها الاجتماع والتحدي لما يواجهها ويؤثر عليها في حياتها، وهذا الاجتماع والتحدي يجب أن يكون بالمعرفة وداخل المعرفة بغية الوصول إلى حلول لما يستشكل عليها، "لذلك فإن مجتمع المعرفة يتصف باحتوائه على قاعدة عريضة من الأفراد الذين يمتلكون المعرفة، أو من يحاولون امتلاك أعلى مستوياتها"([1])، فجعل المعرفة أهم شيء يهتّم به هو الذي ينبغي أن يكون الهدف المنشود من طرف المشتغلين عليها.

كما أن مجتمع المعرفة يتميز بذلك الطابع من التطور الهائل في المجالات العلمية المعرفية بتعدّدها، ويظهر هذا جليا فيما حصل من تطورات هائلة في مجالات العلم والتكنولوجيا وغيرها، وأصبحوا كقوة فعالة ومؤثرة على الحياة،

فبعد انتقاله من عصر مجتمع الزراعة، إلى عصر مجتمع الصناعة، تطور ليصبح مجتمعا للمعرفة، فهو "إذن حالة من الامتياز الفكري والمعرفي والتقني، ومن التقدم العلمي والبشري، الأمر الذي شجع بعض المختصين على وصفه بالثورة المتعددة المعاني والاتجاهات"([2])، فبعد مروره بمراحل تطور متتالية وصل إلى مرحلة تعتبر قاعدتها الفكرية العلم بأنواعه وتعدّد مجالاته واختصاصاته.

يجب على الجماعة المعرفية أن يكون هدفها في مواجهتها للتحديات العلمية المعاصرة إنتاج المعرفة، وأن لا يقوموا بحصرها فقط في الحصول عليها وحيازتها، وذلك من أجل أن يكون رأس مالهم في هذه المواجهة هو المعرفة، وهذه هي وظيفة مجتمع المعرفة، من أجل أن تكون لديهم ثروة معرفية علمية، فالدول الفقيرة هي الدول الفقيرة معرفيا لا ماديا، والثروة المعرفية هي التي تساعدهم في معالجة مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقس على ذلك، من أجل الوصول إلى مبتغاهم مهما كان هدفهم من ورائه، وعليه فمجتمع المعرفة هو "ذلك المجتمع الذي يقوم أساسا بنشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد، والمجتمع المدني، والسياسة، والحياة الخاصة، وصولا لترقية الحالة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية"([3])، نفهم من هذا أن المعرفة هي التي توصلنا إلى أي ثروة أخرى نريدها اقتصادية كانت أو غيرها، فهي أكثر أهمية من الجانب المادي للحياة، بل هي الطريق المعبد للوصول إليه.

1-2- البيوتيقا:

تعد البيوتيقا واحدة من بين أهم المواضيع الأساسية في المجالات التعليمية المعاصرة، فالتجاوزات الخطيرة التي اتسم بها ميدان الطب والبيولوجيا، حتّم على المفكرين والفلاسفة والباحثين محاولة تحدّيها، والوقوف بالمرصاد لها، وهذا لا يكون حسبهم إلا عبر مبادئ أخلاقية تغوص داخل الطب والبيولوجيا، عبر البيوتيقا، ظهر هذا المصطلح في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعتبر البيولوجي الأمريكي "فان بوتر راينس لاير" أول من صاغه سنة 1970، في مقال كان قد نشره باللغة الانجليزية سنة 1971"**Biotique bridje to futures**"، أي علم الأحياء جسر المستقبل، ومن بين الدوافع التي جعلته يستحدث هذا المصطلح، هو التقدم الهائل في المجالات الطبية والبيولوجية، والتأخر في المجال الأخلاقي داخل هذا القطاع، فأراد بذلك إقامة علاقة متضامنة بين علم البيولوجيا والقيم الإنسانية، من أجل استمرار البشرية على قيد الحياة، تحت غطاء الكرامة الإنسانية، و يعتبر مصطلح البيوتيقا كغيره من المصطلحات بحيث يصعب تحديد تعريف دقيق له، وذلك بسبب تعدد التعريفات كل حسب نظرته وتخصصه، ومنه يمكننا القول بأن البيوتيقا هي مركّب من شقين **بيو** أي الحياة و**إيتيقا** أي الأخلاق، فهي إذن "مجال فكري اتسم باستعمال تقنيات الطب الحيوي الحديثة التي تهدف إلى التوفيق بين البحث العلمي واحترام الكرامة البشرية"([4])، وعليه "فهي

فلسفة أخلاقية مطّبقة على العلوم الطبية والبيولوجية"([5])، فالتباعد الذي كان يتميز به العلم عن الأخلاق، جعل من بوتر راينس لاير أن يهتم "بالمفارقة القائمة بين التّطور الهائل للبيولوجيا والتطبيقات البيوتكنولوجية من جهة، والنظر في هذه التطبيقات من ناحية النتيجة الأخلاقية، وهنا دعا فان بوتر روسلير إلى ضرورة التفكير في الممارسات والتطبيقات، فكان مصطلح البيوإتيقا ممكنا من وصال بين العلم وتطبيقاته من جهة، والمقاربة النقدية التي تفرضها الفلسفة من جهة أخرى"([6]) فالتطورات التي أحدثتها الثورة التكنولوجية والحيوية كالإنجاب الاصطناعي، والجينيوم البشري، والاستنساخ، تقنية الهندسات الوراثية، التجارب على الإنسان، زرع الأعضاء، الجهاز العصبي، وضعت الإنسان أمام إشكاليات عويصة حتّمت على الفلسفة أو بالأحرى الفلسفة الأخلاقية التدخل فورا لتوجيه علم الطب والبيولوجيا، بالتحلي بقواعد أخلاقية بغية احترام القيم الإنسانية.

تهتم البيوتيقا كذلك بالواجبات التي يجب على الأطباء الاضطلاع بها أثناء معالجة مرضاهم، وكيفية التعامل معهم، وهذا من أجل التحلي بروح المسؤوليات الواجبة عليهم أثناء أداء وظيفتهم المهنية، وذلك من أجل احترام حياة المريض أو بالأحرى الإنسان ككائن له حقوقه التي يتميز بها، كما يجب عليهم أن يكونوا واعين بالمسؤوليات التي تنطوي عليهم، لأن "الصورة الأكثر حدة اليوم لأزمة الوعي الطبي هي التنوع، وحتى تعارض الآراء المتعلقة بموقف الطبيب وواجبه أمام الإمكانيات العلاجية التي توفرها نتائج البحوث في المخبر، ووجود المضادات الحيوية، والتلاقيح والتقنيات الجراحية للترميم ولزراعة الأعضاء، أو تقويمها وإخضاعها لأجسام إشعاعية النشاط"([7])، وكل هذا يجعل المريض بطبيعة الحال يخشى من هذه التقنيات المتطورة، خوفا من النتائج التي قد تفضي إليها.

2- البيوتيقا أصولها وخلفيات تواجدها:

إن البيوتيقا كمجال فكري كان قد ظهر تزامنا مع ما أحدثته الثورة الكبرى ثورة البيولوجيا، وما حققه العلم من انتصار في عصر الحداثة اعتمادا على العقل وتغليبا للمادة أثناء النهضة الأوروبية، وانحسار الفلسفة ضمن نسقية معتّمة، وما استجد من أحداث من بينها ما ظهر أثناء الحرب العالمية الثانية من تجارب لاأخلاقية على الكائنات البشرية، "كانت قد نشأت عام 1945 خلال دعوى نورمبارغ القضائية المكلفة بمحاكمة تجارب النازيين الطبيّة، وقد نشأ هذا العلم في صلة بالتطورات الحاصلة على مستوى استعمال التقنية في عصرنا، وفي مجالات شتى وصولا إلى التأثير في حياة الإنسان ذاته"([8])، وهذا ما دفع لإنشاء لجان تنشد الأخلاق النظرية والحياتية، بغية تحدي التجاوزات البيولوجية، وكان من ضمن ذلك "تأليف لجان منذ الستينات أوالسبعينات (1975): تشكيل لجنة الأخلاق النظرية الفرنسية). وعندما أخذ الطب التجريبي البشري بالانتشار بدأ ظهور الحاجة عندئذ لتنظيم أخلاقي نظري أو لعلم واجبات. وما لبثت لجان الأخلاق النظرية أن ولدت وكثرت"([9])، وبدأت بالانتشار والتفشي عبر أقطار العالم، فلقد

أعقب قانون نورمبارغ الذي ذكرناه آنفا بغية رفعه للدعوى القضائية لمحاكمة النازيين "إعلان هلسنكي(1964) بحث العيادة عن غير بحث العيادة، ويوصي بتأليف لجان مراقبة طريقة الحصول على الموافقة وصفة المعلومات المقدمة للمرضى المشاركين في التجارب. ولنذكر، أخيرا، أن إعلان مانيلا (1981) يقترح إحداث لجان تقدير أخلاقي نظري. وقد أحدثت هذه اللجان في الواقع منذ سنة (1960) في الولايات المتحدة الأمريكية ثم في بريطانيا العظمى وفي السويد، الخ"([10]).

وللإشارة فإن هذا النوع من الأخلاقيات كان ديدن الفلسفة والفلاسفة على مر العصور والأزمان، فمنذ ظهور الطب على يد أبقراط الذي كان يمارس التأثير على طلبة الطب، مرورا بأرسطو الذي أكّد على ضرورة التّعقل والحذر في المواقف المزمع اتّخاذها، إلى غاية فيلسوف الأخلاق الكبير إيمانويل كانط مع الضّمير العملي عنده، وصولا إلى العصور المعاصرة وإنشاء لجان الأخلاقيات النظرية، وعليه وجب على مجتمع المعرفة طرح هذه المسائل بجدية بغية التصدي لها وإنتاج حلول معرفية تكون ملائمة للتطورات العلمية، وتوظيف البيوتيقا كطرح علمي من أجل الحفاظ على حقوق الإنسان وحريته واستقلاليته، وصون كرامته.

3- وظيفة البيوتيقا وعلاقتها بمجتمع المعرفة في الفضاء الاجتماعي:

ترتبط العلوم الحيوية الحياتية الطبية منها والبيولوجية ارتباطا علاجيا وأنطولوجيا وأخلاقيا بحياة الإنسان داخل الفضاء الإجتماعي الذي يعيش فيه، ومنه يتحتم على المفكرين والفلاسفة والباحثين في ظل مجتمع المعرفة ربط هذا الأخير بهذا المجال العلمي، بغية معرفة الطريق السوي والصحيح ليعيش الإنسان في ظل كرامته وقيمه الأخلاقية والإنسانية. فالبيوتيقا تدل "على خطاب متعدّد المواقف، ومتعدّد الاختصاصات بما أنها تحضر في قلب تمازج حقول معرفية شتى، كما أن البيوتيقا لا تعني فقط الفئات المختصة من باحثين وأطّباء، بل تتجاوز كذلك إلى الرأي العام المدني والاجتماعي بما أنه هو موضوع التطبيقات البيوتكنولوجية"([11])، فمجتمع المعرفة وإثر تطرقه إلى العلم بصفة عامة من أجل توجيهه وحسن التعامل بتعدداته واختصاصاته، سوف يجد في طريقه البيوتيقا التي تعد أحد أهم المداخل الأساسية التي يتوجب عليه تناولها باختلاف آرائها من أجل ضبطها والتحكم في تطبيقاتها، فهي أحد الأمور التي تقودنا للدخول إلى مجتمع المعرفة، باعتبارها واحدة من بين العلوم التي تعتمد على التكنولوجيات والتقنيات المعاصرة، ونقصد بذلك التكنولوجيات الحيوية، وما يحيط بها من تطورات في عالم الطب والبيولوجيا، فلا يخفى على أحد قوة العلم مع بزوغ العصر الحديث والمعاصر، والذي جاء بأشياء وضعت الإنسان أمام حيرة من أمره في استقبالها، ومنه يجب على مجتمع المعرفة اختيار المسلك الإيجابي، كي يكون خدمة للبشرية جمعاء، فهو كذلك "وليد هذه التكنولوجيا، يفرض ضرورة مواجهة المعرفة وجها لوجه، مواجهتها وهي تعمل، وتمارس فعلها في عمق الكائنات وصلب الكيانات، ويفرض كذلك إدراك ما للمعرفة من أهمية في صياغة المجتمع الإنساني من جانب، وتعاظم

المخاطر التي تنجم عن إساءة استخدامها من جانب آخر"([12])، من أجل هذا نحن نلح على الاستخدام الإيجابي للمعرفة في إطار التطورات التقنية في المجالات التطبيقية الطبية والبيولوجية.

إن الفضاء الاجتماعي ليس من السهل عليه تقبل أفكار وعلوم كتلك التي تتميز بها العلوم الطبية والبيولوجية، فما يتميز به الإنجاب الاصطناعي، وتقنية الهندسات الوراثية، وعلم الوراثة، والتجارب على الإنسان، والاستنساخ البشري، جعل العديد من علماء الطبيعة والأخلاق يتصدون لها، فكل هذه المعارف البيولوجية أثارت إشكاليات عويصة، ولن ترحل حتى تترك "للبشرية مفاجآت من حروب مدمرة وأفكار شاذة وتقاليع شيطانية وتجارب خطيرة، والإنسان لم يكتف بالقنابل الذرية والميكروبية والكيميائية، وما أحدثه في الهندسة الوراثية في الزراعة والحيوان حتى تخطى الإنسان، وكانت القنبلة المدوية هي تجارب الاستنساخ البشري مما جعل علماء الدين والأخلاق والذين يحاولون تحذير الإنسان من تدمير نفسه"([13])، وعليه فإن "تقنية الطب الحيوي لن تستخدم في أي من هذه الحالات لخدمة تلك الخرافات، دون أن تفسد طبيعتها العلمية والأخلاقية. سيكون الطب إذن في خدمة فكرة خيالية، علمية زائفة، في الأصل، بالإضافة إلى، مشروعات تهزأ بكرامة الأشخاص القادمين"([14]).

كما لا يجب علينا أن ننسى ونحن في إطار الحديث عن البيوتيقا ووظيفتها الأخلاقية، أن نتحدث عن الطبيب وأخلاقياته المهنية، فللطبيب الدور البارز في الممارسة الطبية على الجسد البشري، وهذا أمر لا يستهان به، بحيث يجب عليه أن يعي ويعرف القواعد الأخلاقية التي يجب عليه الالتزام بها، ومنه لا ننسى دور مجتمع المعرفة في تحديده للقوانين الواجب التحلي بها من طرفه، فها هو أبقراط محدثا تلامذته بقوله: "العمر قصير، والصناعة طويلة، والزمان جديد، والتجربة خطر...وإني أنهى عن التجربة في صناعة الطب"([15])، فيبين لنا هذا القول مدى خطورة التجربة على المرضى خصوصا تلك التجربة العشوائية، التي قد تفضي بحياة الإنسان إلى التهلكة، أو تهدد أبعاده الأنطولوجية، ومنه يجب على الطبيب توخي الحذر عند إقدامه على تجربة معينة على مريضه، أو إقامة عمليات جراحية على جسده كما هو معروف داخل الفضاءات الإجتماعية.

كما أن للمعاملة دور مهم من قبل الطبيب لمرضاه، كالنهي عن كثرة الكلام، وعدم الكبر عليهم، بل يجب عليه أن يكون متواضعا متخلقا معهم، "حافظا لغيبهم، كتوما لأسرارهم... فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من أخص الناس به، مثل: أبيه وأمه وولده، وإنما يكتمونه خواصهم، ويفشونه إلى الطبيب ضرورة"([16])، فالطبيب أول خطوة للمريض من أجل الشفاء، فيجب أن تكون بدايتها مسك، لأنها تلعب دورا كبيرا في الجانب النفسي للمريض، والجانب النفسي نقطة مهمة يجب الاعتناء بها من أجل راحة المريض وشفائه.

4- العوائق الإبستيمولوجية للبيوتيقا وتحديات البيولوجيا المعاصرة:

تواجه البيوتيقا في إطار محاربتها للجانب اللاأخلاقي للتجارب الطبية البيولوجية تحديات كبيرة، فلا ننسى بأنه ليس العالم ككل رافضا لها، فلو عدنا إلى الوراء أي إلى الزمن غير البعيد، نجد على سبيل المثال الفيلسوف الفرنسي كلود برنار ينادي بإمكانية تطبيق المنهج التجريبي على المادة الحية، وأنه لا مشكلة في ذلك، ولكن لهذا الرأي نقاده، فلا يجب علينا أن نقول بعفوية بإمكانية تطبيق التجربة على الكائن الحي، ونطلق العنان للتطبيقات الطبية البيولوجية بهكذا سهولة، ومنه يجب الموازاة في ظل التطورات التقنية والطرائق المخبرية للتجريب على الحي، بين التقدم العلمي والأخلاق، "فنحن نتفق بشكل عام حول أهمية وقيمة السيطرة على الأمراض والأوبئة والتخلص منها. ولكن التقدم في هذا المجال يعتمد أساسا على البحوث والتجارب التي يجب أن تجرى سواء على الحيوان أو الإنسان. أما بالنسبة للحيوان، فإن استخدامه مزال مستمرا رغم اعتراض جمعيات الرفق بالحيوان. ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في إجراء التجارب على الإنسان"([17])، وهذا يدل على عدم ممارسة الأدوات التقنية والتجارب الحيوية بأريحية، فيجب مراعاة الجوانب النفسية والجسمية والعقلية للإنسان، وأن تكون هذه التجارب أخلاقية اجتماعية سلوكية، وهنا نجد تحديات البيوتيقا، وما تقوم به أمام البيولوجيا داخل الأطر الفلسفية الأخلاقية التي نادى بها العديد من الفلاسفة، فالأخلاق تمثل مركزا أساسيا في الفلسفة خصوصا إذا تعلق الأمر بكينونة الإنسان، وبالتدخل في حياته الشخصية، ومنه الافتقار إلى حريته واستقلاليته، وعليه "نرى أن يحرم تحريما صارما...وإصدار تشريعات تعاقب من يدعي ملكية الحياة وملكية مادتها"([18])، فلا أحد له الحق بالمساس بقيمة الإنسان، أو التدخل في شؤونه، ومن هنا نجد أنفسنا بحاجة إلى دور فعال تقوم به الجهات المعنية المكلفة بالحفاظ على حقوق الإنسان، من رجال الحكومات والسياسة وسن القوانين الردعية لمن يتجاوز حدوده في هذا الإطار، ولجان الأخلاق الحياتية، ومنظمات حقوق الإنسان، والمنظمات الدولية، "بل إن القانون الدولي يضع في اعتباره علم الأحياء عندما يمنع استخدام أنواع معينة من أسلحة الحرب والدمار. وعندما يجتمع علم الأحياء مع الطب، هل يستطيع القانون أن يفرق بين مزاولة الطب وإجراء التجارب البيولوجية تاركا أحدهما بدون قيود"([19])، كما يجب عليه أن يحارب أولئك الذين يريد استغلال الجسد البشري واستخدامه كسلعة تباع وتشترى، فهذا الأمر والذي إن صح تعبيرنا كان ربما مسلما به في أزمان ولت وانقضى وقتها، أما اليوم فلا أظن أن هناك دكتاتوريات على الجنس البشري تمارس سلطتها عليه كما يحلو لها، وإن وجدت فبطرق مختلفة، أو لأسباب معينة، أو أهداف مركزة، أما أن يكون كما في الماضي من عبيد وخدم يفعل بهم الملك كما يحلو له فهذا قد تغير وزال مفعوله، والدليل على ذلك ما يحدث اليوم في العالم من تنديدات وتشريعات تكفل حرية الأشخاص وظهور دول ديمقراطية كالتي يتميز بها الغربيون على سبيل المثال، وإعطاء الحق الكامل للشعوب بتقرير مصيرها والتنديد بحقوقها من أجل عيشها عيشة كريمة، "فالقانون يضمن أولوية الشخص، ويمنع

كل عدوان على كرامته، ويكفل احترام الكائن البشري منذ بدأ الحياة"([20]) إلى أن يموت وحتى بعد موته ويصبح كجثة هامدة، حتى هنا فإنه لا يحق للأطباء والبيولوجيين أن يمارسوا تجاربهم على البشر مهما كانت حالتهم الطبيعية، لأنهم سيجدون من يقف لهم في طريقم من جماعات متعددة مناهضة لأفعال كهذه من "رجال الدين والمحافظين في الغرب، حيث يعارض هؤلاء استخدام الأجنة البشرية للدراسة والبحث، لما في ذلك من امتهان لكرامة الإنسان، كما أن هذه الأبحاث والتي تهدف أساسا إلى الحفاظ على حياة الإنسان ليس من المعقول أن تتم على حساب حياة إنسان آخر"([21])، فزرع الأعضاء الذي يقوم به الأطباء من جسم إنسان مريض نفسه أو من إنسان إلى إنسان آخر على أساس الطعم المغاير هو مساس بقدسية ذلك الإنسان حتى وإن كان ميتا فللأموات كذلك حقوقهم التي يتمتعون بها والتي يجب على الآخرين احترامها.

إن عدم تحدي ومحاربة التجارب البيولوجية على الإنسان قد يؤدي للتنبؤ بمخاطر مستقبلية تهدد كيانه ووجوده الأنطولوجي، ومنه يجب على مجتمع المعرفة أن يضع في حسبانه مواضيع البيوتيقا، من أجل دراستها دراسة موضوعية بغية التصدي للمشاكل الأخلاقية التي تطرحها العلوم الحيوية، فلا أحد بإمكانه إنكار الجوانب الإيجابية للعلم، وما يعود به بالنفع على الإنسان وبيئته، ولكن هذا لا ينفي في نفس الوقت الجوانب السلبية التي يتسم بها، والتي تهدد وجود الإنسان، فالعلم سلاح ذو حدين، خدمة الإنسان وتوفير ما يحتاجه بغية العيش عيشة كريمة وهنيئة، وتحطيم الإنسان وتدميره كما فعل ذلك عن طريق الحروب والقنابل الموقوتة المختبئة وراءه، ومنه تدنيس حياته وكرامته، لذلك يجب أن يقوم مجتمع المعرفة في ظل تطور العلوم والمعرفة بتوجيه العلماء والأطباء والبيولوجيين والبشر بصفة عامة، إلى حسن استعمال الوسائل التقنية المتطورة بغية الانتفاع بالعلوم والاستمتاع بالحياة البشرية.

5- مستقبل وآفاق البيولوجيا في ظل مجتمع المعرفة:

يعتبر مستقبل البيولوجيا في ظل مجتمع المعرفة إشكالا عويصا لابد من الاشتغال عليه بقوة، وهو يعود إلى مدى الاختصاصيين والفلاسفة والمهتمين بالابتكارات التي يتسم بها العلم الحديث والمعاصر في مجالاته المتعددة، من اقتصادية وثقافية وتكنولوجية وغيرها، ومنه طرح تساؤلات أخلاقية واجتماعية ونفسية وحقوقية، ومن هنا نجد أن مجتمع المعرفة بصفته كمجتمع يشتغل على المعرفة وتوليدها وإنتاجها، فهذا يعني أن عليه الإحاطة بجميع أنواعها، ومفاهيمها المرتبطة به، كالصناعة والزراعة والتكنولوجيا إلى غير ذلك، ومنه وبما أن البيوتيقا واحدة من بين التكنولوجيات المعاصرة أو بما تسمى بالتكنولوجيات الحيوية، فلها مكانها بطبيعة الحال كمعرفة ضمن مجتمع المعرفة، وعليه وجب الربط بينهما، بغية الوصول إلى مستقبل زاهر للبشرية جمعاء، وكيف يكون هذا المستقبل في

إطار آفاق البيولوجيا والطب والتطورات الحادثة بينهما، فلا يمكننا نكران المنعطف الذي سار عليه العلم وعودته بالنفع على البشرية تلك، حتى ولو كان في مجال البيولوجيا، ولكننا في نفس الوقت "من المستحيل في هذا المنعطف أن نعرف مدى الحسم الذي ستكون عليه أي من هذه الحجج النفعية ضد تطورات بعينها في مجال التقنية الحيوية، فكثير منها سيتوقف تحديدا على ما ستؤول إليه هذه التقنيات، ما إذا كنا سنتوصل، مثلا، إلى إطالة الحياة دون أن نحافظ في الوقت نفسه على جودتها المرتفعة، أو أننا سنطور معالجات جينية تنتج بصورة غير متوقعة آثارا مروعة"([22])، وعليه يجب الحذر والتمعن عن ما سيسفره هذا العلم مستقبلا، وأن يأخذ مجتمع المعرفة هذا الأمر بجد واحترافية، بأن يجتمع العلماء ويحاولون أن يبحثوا جيدا في هذه التطورات، والأخذ فقط بما يعود بالنفع على المجتمع، والأخذ كذلك بعين الاعتبار الحيطة والحذر في التطبيقات البيولوجية والتجارب الحيوية على البشرية، فلقد "أثبت تاريخ العلم، أن النتائج التي يصل إليها البحث العلمي لا تعد خيرا كلها، أو أنها كلها تهدف إلى خير المجتمع ورفاهية البشرية، ولم يعد من الممكن الاعتقاد أن ثمار العلم دائما مفيدة. فالعلم يمكن أن ينتج الخير والشر معا"([23])، لذلك فتحليل العلم والعلم البيولوجي، وإقحام الأخلاق كمبحث أساسي فيه، في إطار مجتمع للمعرفة كفيل بحماية الإنسان وصون كرامته وهذا واجب الجميع، من مؤسسات وحكومات وسياسات وغير ذلك، كما لا ننسى الدور الفعال الذي تلعبه تكنولوجيا الإعلام والاتصال في ذلك بتوعية الناس، وإعطائهم النصائح والتوجيهات وإعلامهم بما يدور حولهم من اختراعات تتحكم في حياتهم اليومية، كما أن لهؤلاء الناس الحق في التدخل والاعتراض عن ما يشكل خطرا على حياتهم ومستقبلهم، من أجل توقيفه والحد من انتشاره وتطبيقه على أرض الواقع.

كما أننا ونحن وسط هذا الفيض المعرفي للتكنولوجيات بأنواعها وما برز عنها من نزعة التخصص التي تجعل نظرتنا لعلم معين تكون مقصورة داخل ذلك التخصص، فتكون بذلك نظرة اختزالية وجب تجاوزها، واستبدالها بنظرة هدفها التركيب بين العلوم والتخصصات داخل كليتها وشموليتها، وعليه يأتي التركيب بين التكنولوجيا الحيوية والأخلاق التطبيقية، فلا نعتمد على الطب كتخصص داخل الطب وننسى الدور المهم الذي يلعبه الجانب الأخلاقي داخله، بغية إدماج كل واحد منها داخل الآخر، ففي عصرنا "الراهن أصبح من البديهي أن القضايا الأساسية في علم الحياة لا يمكنها أن تحل باتجاه تطوير طريقة بحثية واحدة. فما يحدث ليس فقط تفاضل المسائل البحثية وتوسّع جبهة المعرفة وتخصص الأخيرة، بل وتوطّد عمليات التكامل والتفاعل بين الطرق والعلوم المختلفة، بيولوجية كانت أم غير بيولوجية. إن هذا يعني القدرة على مقاربة المعرفة ديالكتيكيا"([24])، فعلم الأخلاق ليس تخصص بيولوجي في حقيقته، ولكن هذا لا ينفي اتحاده معها، نظرا للمخاوف المستقبلية التي تشكلها التهديدات التي تقوم بها التجارب الطبية البيولوجية على الإنسان، وهذا جعل العلماء والعديد من المؤسسات عبر العالم يندّدون بهذه التجارب من أجل الحد منها ومحاربتها، ومنه فإن لاجتماع العلماء هنا والمحاولة للخروج برأي قويم في ظل مجتمع المعرفة مهمة

جدّية للغاية، باعتبار أن مجتمع المعرفة هو الوسيلة الناجعة لإيجاد الطريق السوي الصحيح للوصول إلى حلول للأزمات التي قد تحدث مستقبلا، وعليه نجد العديد من المؤسسات كمؤسسات "أمريكية مثل مؤسسة هاستنجز، ومؤسسة كندي للأخلاق البيولوجية، ومؤسسة أخرى إنجليزية مثل مجلس المجتمع والعلم كلّها مؤسسات كانت مهمتها منذ الستينات من هذا القرن دراسة التطورات التي تحدث في هذا المجال وكتابة البحوث عنها. لقد كانت ولا تزال تقوم بدور الرقيب والوسيط بين المجتمع والعلماء، إلى درجة أنه أصبح لها دور كبير وفعال في الجامعات والمنشآت العلمية"([25])، فيفهم من هذا أن للعلماء وللمؤسسات التعليمية بأنواعها جامعية كانت أو غيرها، دور واهتمام بليغ في تفعيل الأخلاق الحيوية حتى لا يتجاوز البيولوجيون والأطباء حدودهم في اختراعاتهم العلمية، ومنه فإن "في العالم اليوم أصوات مسؤولة تنادي المجتمع العلمي لكي يقلع عن إجراء التجارب على الخلايا البشرية والبحوث الأخرى التي قد تنمي المعرفة والوسائل لمثل هذه الهندسة الوراثية. كما يرى البعض ويرغب كلية لو امتنع المجتمع عن مساندة مثل هذه البحوث، بل أن يمنعها بالقانون على الرغم من إيمانه بأن المعرفة جيّدة بطبيعتها، لكن المعرفة شيء وإساءة استخدام منجزاتها شيء آخر"([26])، فلا يجب البتة الأخذ بالمعرفة كما هي، بل يجب تحليلها وفهمها الفهم الجيد وتنقيحها من أجل استعمالها الاستعمال المفيد للإنسان، والأخذ منها ما هو صالح لنا اليوم وغدا في مستقبلنا، فالمعرفة هدّدت ولا زالت كذلك تهدّد الإنسان البشري في حياته الجسمية والنفسية والأنطولوجية وغير ذلك في كثير من الأحيان، والتجارب الحيوية لأكبر دليل على ذلك، وبسبب هذه التهديدات نجد أنفسنا دائما في موقف خطير يدفعنا إلى التساؤل دائما عن "ما هي العقبات أو العراقيل التي تهدد تفتح ما وراء أخلاق خاصة بالطفرات المرتبطة بعلوم الحياة، بالتغيرات الكيفية للعمل الإنساني في حقل الكائن الحي الذي ينتمي إليه الإنسان نفسه؟"([27]).

خاتمــة:

وختاما لما سبق نقول بأن خطاب البيوتيقا في ظل مجتمع المعرفة وكون كلا المصطلحين لا يزالان في إطار التكوين لا يمكن أن نتنبأ فيهما بالنتائج الحتمية ، فضلا عن هذا فإن هذه الإشكالية تعرف تباين في الفهم والطرح بين المرجعيتين العربية الإسلامية والمرجعية الغربية الأوروبية والأمريكية بالنظر إلى الخصوصية الثقافية والإطار الديني الذي يحكم المرجعيتين، كما أن المبحث المعرفي للبيوتيقا هو مبحث متعدد التوجهات والاختصاصات، وبما أن مجتمع المعرفة يهتم به العلماء والباحثين والسياسيين ورجال القانون والاجتماعيين، وطبقا للتطورات المحيطة به، وبحثه ودراسته للمعرفة بأوجهها المتعددة، وجب عليه أن يحاول قدر المستطاع التوصل إلى صياغة القوانين، وإلى تنظيم تشريعات صارمة تتحكم في الطب والبيولوجيا ضمن أخلاقيات مبنية على الواجب والمسؤولية من طرف الأطباء والبيولوجيين، وسن مجموعة من القواعد الأخلاقية التي يلتزم بها هؤلاء والتي يجب تطبيقها في المجال الحي، بغية

الحفاظ على الجنس البشري، والمضي قدما في ظل أخلاقيات توعد بمستقبل زاهر وواعد يعيش فيه الإنسان بكرامته وحرماته حرا مستقلا، فليس من الأمر السهل الاستهانة مما سيجر البشرية من ويلات وما سيؤول إليه المجتمع من انهيار للقيم بسبب هذه الابتكارات التي لا ندري إلى أين ستؤدي بنا مستقبلا بما أن النتائج غير واضحة جيدا، وعليه لا يجب إطلاقا أن يكون الجنس البشري كالمادة الجامدة تمارس عليها التجارب الطبية البيولوجية مما يفقد الإنسان إنسانيته، وجعله كالعبيد تحت رحمة سلطات معينة تستخدمه كما يحلو لها، بل يجب دائما أخذ الحيطة والحذر مما سيواجه المجتمع مستقبلا.

- **الهوامش:**

(1) أديب يوسف الخشاب، "مجتمع المعرفة وتأثيره في العمل المعرفي" تنمية الرافدين، العدد 95، 2009، ص141.

(2) ربحي مصطفى عليان، مجتمع المعرفة: مفاهيم أساسية، المؤتمر ال32 للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، الدوحة، قطر، 2012، ص3.

(3) المرجع السابق، ص7.

(4) عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، الأخلاقيات التطبيقية جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم، (مجموعة مؤلفين)، إشراف وتنسيق: خديجة زتيلي، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2015، ص120.

(5) المرجع السابق، ص121.

(6) المرجع السابق، ص31.

(7) جورج كونغلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، تر: محمد بن ساسي، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص552.

(8) مرجع سابق، ص121.

(9) جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: عادل العوا، ط1، بيروت، دار عويدات، 2001، ص116.

(10) المرجع السابق، ص116.

(11) مرجع سابق، ص40.

(12) نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، ج1، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009، ص66.

(13) عبد المعز خطاب، الاستنساخ البشري هل هو ضد المشيئة الإلهية؟، القاهرة، الدار الذهبية، ص73.

(14) هنري أتلان وآخرون، الاستنساخ البشري، تر: مها قابيل، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2016، ص29.

(15) أبي بكر محمد بن زكرياء الرازي، أخلاق الطبيب، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف محمد العيد، ط1، القاهرة، دار التراث، 1977، ص78.

(16) المرجع السابق ص28.

(17) ناهدة البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، ب.ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1993، ص48.

(18) هاني خليل رزق، الجينيوم البشري وأخلاقياته، ط1، دمشق، سوريا، دار الفكر، 2007، ص465.

(19) سعيد محمد الحفار، البيولوجيا ومصير الإنسان، ب-ط، المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984، ص206.

(20) مرجع سابق، ص117.

(21) أحمد راضى أحمد أبو يعرب، الهندسة الوراثية بين الخوف والرجاء، ب-ط، دار ابن رجب بالاشتراك مع دار الفوائد، 2010، ص56.

(22) فرانسيس فوكوياما، مستقبلنا بعد البشري، تر: إيهاب عبد الكريم محمد، ط1، أبو ظبي، الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2006، ص129.

(23) مرجع سابق، ص202.

([24]) أ.ي.إيلين-إ.ت.فرالوف، البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا، تر: محمد أحمد شومان، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1982، ص65.

([25]) مرجع سابق، ص208.

([26]) مرجع سابق، ص211.

([27]) مرجع سابق، ص119.